نظرة عابرة في ديوان (قصائد ضاحكة) للشاعر ناجي بن داود الحرز

ديوان (قصائد ضاحكة) للشاعر ناجي بن داود الحرز حقل لغوي مفخخ بألغام الضحك ، لا تبدو قصائده ـ الممتدة زمنيا ما بين عام 1405إلى عام 1421هـ ـ كلها متبرجة بالضحك منذ أول قراءة ، بل يظل الضحك كامنًا في تربة اللغة كُمُون اللغم في التراب ، و ربما يجوس القارىء خلال الديوان لتتفجر في وجهه الضحكات مدوية ، ولتتركه موجة ً ضاحكة لتدفعه موجة ضاحكة أخرى .. و هكذا شاعر الديوان ، فالديوان صنو شاعره ، ، فنراه يركن أحيانا إلى صوت الحكمة ، وكأنه يحاول الحفاظ ـ أو هكذا يوهمنا ـ على ذمام وقاره و رصانته (الحرزية) وسط جوقة الضحك ، من مثل قوله في قصيدة (القرمبع) :

الشعرُ كم للشعر في

زماننا من مدّعِ

يحاول الوقوف في

صف المجيدين معي

هيهات (يا أ حمد) ليس

الطّبعُ كالتّطَبّعِ

وليس (باقلُ) الفها

هاتِ كمثل (الأصمعي)

إنّ بلوغ قمّة ال

مـــجـــد شـــديـــدُ الـــوجـع

فـانـظر إلـــى مـاذا يـؤولُ

الأمـــــــرُ (بـالـقـرمـبـعِ)

أو مثل قوله في قصيدة (فرصة) :

وتـجـرّعتُ مـصابي

غصةً من بعد غصّة

وكـــذا نـأخـذ دومًـــا

عِـــبرةً من كل قصّة

لـــم تـودّعْكَ وربـي

حـيـّـــةٌ إلا بـقـرصـة

أو قوله في قصيدة (الشريدة) :

كم طامعٍ في الربح أص

بحَ أو يكاد على الحديدة

أو طـــــاردٍ صـــيـــداً لـــيـُـمْ

سِكَهُ فصار هو الطريدة

فهذه الأبيات الحكمية المدسوسة بين خميلة الضحك ، على الرغم من قيمتها المعنوية قد توقف تيار الضحك عند بعض غير المتمرسين في اكتشاف ما خلف السطور .

الحس الفكاهي لدى الشاعر ناجي بن داود الحرز حسٌّ استحواذي ، يظل يلح عليه ، ويشكل به واقعه الخاص ، ورؤيته للحياة والموجودات من أشخاص و عجماوات ، ولا يفوت أن نشير إلى انطواء هذا الحس الفكاهي على جارحة نقدية تمثل ما يشبه عنصُرَي : الرفض والإحتجاج عبر اللاشعور الذاتي أو عبر اللاشعور الجمعي ، كما في قصائد : (إرحمونا ، مصرع دجاجة ، شمشون الخكارة ، فرصة) باعتبارها قصائد ضاحكة أولا ، وباعتبارها نماذج جلية على وضوح الحس النقدي بما ينطوي عليه من عنصرَي : الرفض والاحتجاج ثانيا ، فهذه القصائد تمثل بجلاء الطريقة الحرزية ـ حقا ـ كذات ناقدة تتوسل الشعر الفكاهي .. كما يؤسس لذلك الشاعر في مواضع مختلفة من الديوان .

فالحس الفكاهي في هذه القصائد ، ينطوي على لذعة من لواذع السخرية ، تهدف إلى نقد الواقع وإعادة تمثيله ، بإزاحة ألوانه القاتمة التي توحي بالرتابة والجهامة والسأم بفرشاة الفكاهة المبللة بالألوان الزاهية المرحة التي توحي بالظرف و التندر والتفكه ، فالسخرية أدنى مراتب النقد كما يقول (جهاد الخازن) ، وقبول السخرية سماحة كما يقول (عباس محمود العقاد) ، فعلى الشاعر بحسه الفكاهي الساخر نقد الواقع بالسخرية منه وعلينا قبول ذلك بسماحتنا .

فالنكتة فضّاحة ، تفضح الواقع الآسن ، فكيف بها إذا حُقنت بعقار الشعر فإنها تصبح أرقى الفنون الهزلية في التعبير عن الذات المُضحكة والضاحكة في آنٍ معا ! .

ديوان (قصائد ضاحكة) في متنه اللغوي ينتمي إلى لغة ناجي بن داود السهلة الممتنعة ، التي تتخفف ـ غالبا ـ من المجازات البلاغية ، والإكسسوارات البديعية ، ويبقى ناجي بن داود الحرز كالنهر في تشكيل سطح لغته ، حيث يمزجها بموهبته ، و يخصبها بفنه ، ويدعها كالطمي صالحة لاستنبات رؤاه الشعرية ، و منها ضواحكه الفكاهية ، و عاطفة الضحك لا يوائمها إلا هذا الأسلوب السهل البسيط ، ذو الصياغة الخالية من الكحول اللغوية ، بل والمنفتحة على الذاكرة الشعبية بمفرداتها و تراكيبها و سياقاتها الجمالية ، ولذا نلحظ على الديوان تشبّعه بالعبارات اليومية ، والكلمات العامية المشحونة بكهرباء الضحك ، يذروها الشاعر كالبهار في القصيدة ، كي يضفي عليها نكهة و مذاقا يُسهمان في دغدغة (جسد القارىء ، و يدعوه للضحك كلما همّ بالإقلاع عنه ..) كما قال الأستاذ عادل الرمل في تقديمه للديوان .

ولنا أن نتابع ذلك في الأمثلة التالية : (يِلِمّ الأُطنِ تاني ، المجبوس ، القير والشكمان ، الروس والمصران ، الخكارة ، مطفوق ، صج ولج ، ينغق ، يبغق ، صطل ، ألطش ، القرمبع ، الرّصّات رصّة ، مقصة ، نويجي ، خبصة ، ينتوصّه ، لطشَتْ ما لطَشَت ، الجزدان ، قرصة ، عاير) و كأن الشاعر باستنهاضه الذاكرة الشعبية عبر هذه المفردات والتراكيب بحمولاتها الدلالية يريد فتح باب الإجتهاد في الضحك ، بل و الغلو فيه ، باستثمار مخزونها التراثي الشعبي للمضاربة به في سوق الضحك .. !

إضافة إلى لجوء الشاعر و حرصه ـ في بعض القصائد ـ إلى إحياء الذاكرة وإنعاشها عبر التواصل الشعري مع التراث في مثل قصائد : (وادي الشياطين ، تزوجت اثنتين ، الفاتن الصفراء) بوصفها قصائد معارضة ، إحرازاً منه ـ وهو الحرز ـ لأوجه التشابه في التجربة كما في (تزوجت اثنتين) ، أو في الوزن والقافية على الأقل كما في (وادي الشياطين) و (الفاتن الصفراء) .

وأخيرا .. تمثل ظاهرة رثاء الحيوان ، وإنطاقه بما في طوايا النفس تقليداً أدبيا عريقاً ، لا في الأدب العربي فحسب ، بل وفي الآداب الإنسانية باعتبارها محاولة للتسلل إلى الواقع خصوصا إذا كان الواقع ملبّداً بالغم السياسي و غيمه ، حيث تصبح ا لدعابة ضرورة ، و النكتة حتمية ، فيكون الحيوان ـ والحال كذلك ـ قناعا و رمزاً ، حيث تتخفى الفكاهة وراء حاجب اللغة من جهة ، ووراء لسان الحيوان بوصفه قناعا من جهة أخرى .

في ديوان (قصائد ضاحكة) حضورٌ مكثف للحيوانات ، والفراشات ، والطيور المحلية ، و كأن الشاعر

يرصد إيقاع البيئة المحلية في أصوات حيواناتها ، مساهمة منه في شد انتباه القارىء إلى ما يثير فيه رغبة الضحك ، وبهذا وبالإنفتاح على الذاكرة ا لشعبية وقاموس اللهجة (الحساوية) لا (المُبَرّزية) ، لا يكتب الشاعر قصيدة شعرية تبعث على الضحك فحسب ، بل يشكل الديوان أيضا (مصدرية شعرية للتاريخ الأحسائي) بذاكرته و لهجته ، كما يقول الشاعر و الناقد الأستاذ محمد بن حسين الحرز .

إن الشاعر في قصيدته (مصرع دجاجة) و (مصرع فتّ) والأخيرة من خارج الديوان ، لا ينحو فيها منحى فكاهيا و كفى ، وإنما يجدها فرصة مواتية للتعبير عن مكنوناته و قناعاته و رؤاه دون حرج ، وكأن هناك فكرة ضاغطة عليه يصرح بها على ألسنة هذه الحيوانات المستأنسة .